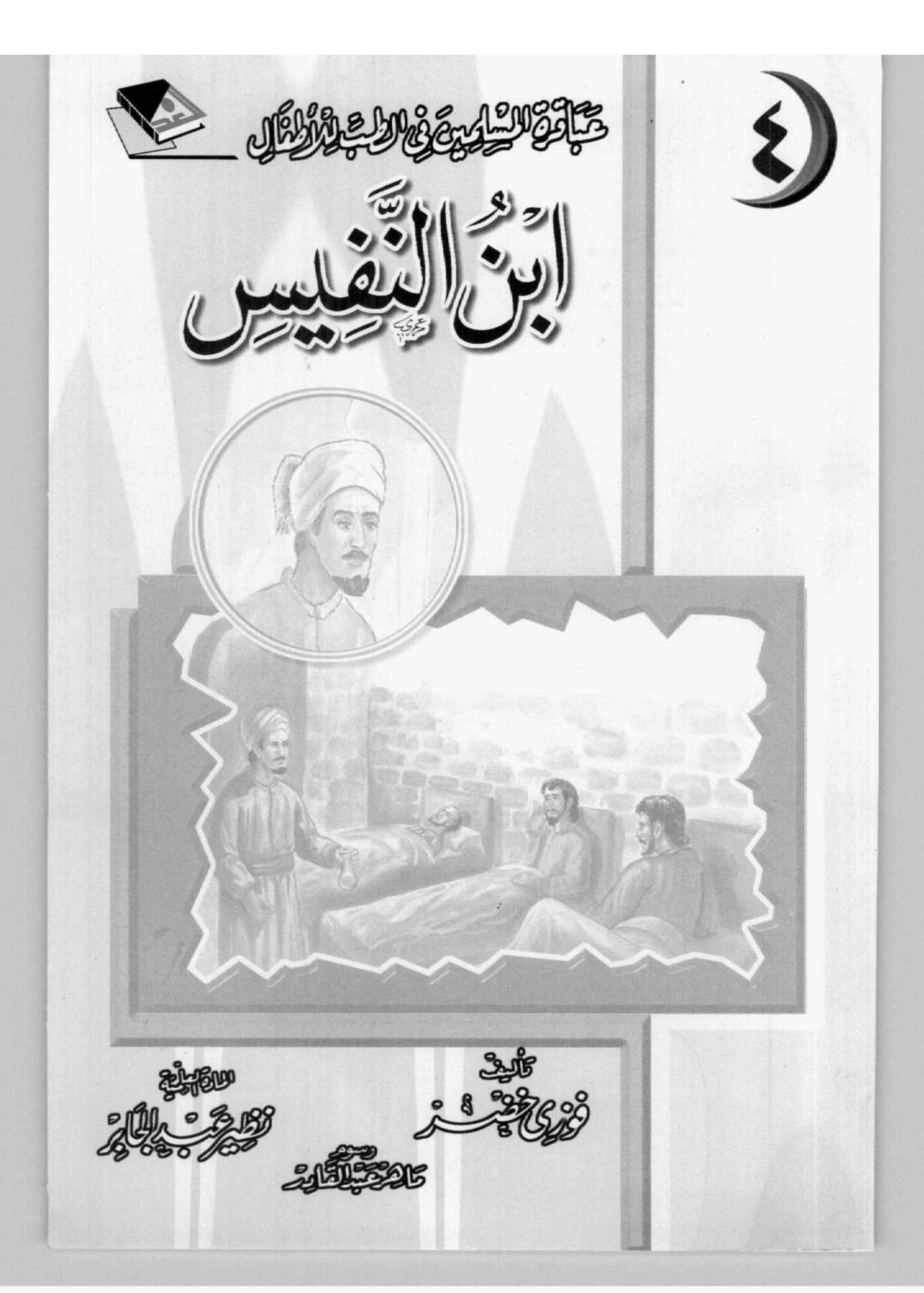

٤
عباقرة المسلمين في الطب للأطفال
ابن النفيس
تأليف
فوزي خضر
المادة العلمية
نظير عبد الجابر
رسوم
ماهر عبد القادر

الناشر : مكتبة ومطبعة الغد
العنوان : ٢٣ ش سكة المدينة - ناهيا - إمبابة - جيزة
تليفون : ٣٢٥٠٢٠٢
رقم الإيداع : ٨٣١١ / ٩٩
الترقيم الدولي : 6-29-5819-977
رسوم وإخراج فني : ماهر عبد القادر
خطوط : مصطفى عمرى
مراجعة لغوية : حمزة عبد المنعم الزمر

الطبعة الأولى : صفر ١٤٢٠ هـ - يونيو ١٩٩٩ م

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

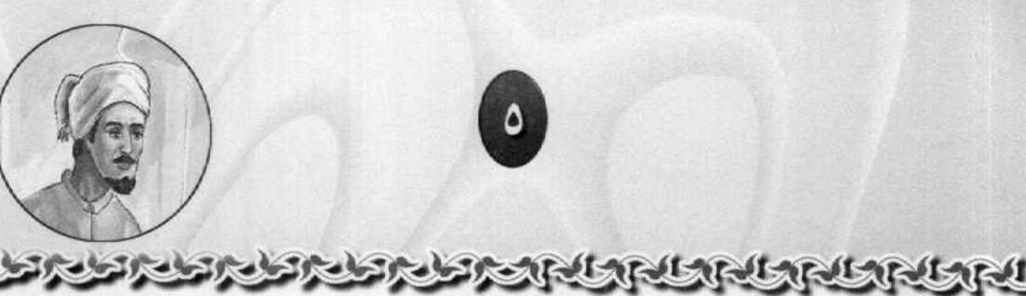
كانت دمَشْقُ عامرةً بحركة علميَّة مُزْدَهِرَة ، يَفِدُ إليها العلماءُ من كافَّة الأَرْجاء، وكان سُلطانُها سَيْفُ الدِّينِ الأيوبىُّ - الملقَّبُ بالسُّلطانِ العادل - مَشْهوراً باهتمامه بالطبِّ والأطبَّاء ، لذلك تَوَسَّعَ فى إِنْشَاء المستشفيات . وفى دِمَشْقَ كان يَعيشُ الحكيمُ عَلاءُ الدين أبو الحسن علِى بن أبى الحزم القُرشِىّ ، الملقَّبُ بابن النَّفِيسِ ، والمولود فى سنة (٦٠٧) ستمائة وسبع هجرية - (١٢١٠) ميلادية بإِحْدَى ضواحى دِمَشْقَ .



دَرَسَ ابْنُ النَّفِيسِ كثيراً من العلوم مِثْلَ تَفْسِيرِ القرآنِ الكريمِ، والحديثِ النبوىِّ الشريفِ ، وأُصُولِ الفقه ، واللغة والأدب ، والمنطقِ والفلسفةِ ، وغيرِها . لكنّهُ مَالَ إلى دراسة الطبِّ ، وتَلَقَّى العلومَ الطبيةَ على كبار أطبَّاءِ زَمَانِه ، وفى مُقَدِّمَتِهِمْ الطبيبُ العالِمُ مُهَذِّبُ الدين الدِّخْوار ، الذى أَنْشَأَ مدرسةً فى دِمَشْقَ لِتَعْلِيمِ الطُّلابِ علوم الطب .



كان ابْنُ النفيس طويلَ القامة ، نَحيفَ الجسمِ ، أنْفَقَ وَقْتَهُ كلَّه فى سبيل العلم ، وَاجْتَهَدَ فى الدِّراسة ، ودقَّق فيما يَقْرَؤهُ ، وأَخْلَصَ فى الاهْتِمَامِ بِتَحْصِيلِ العلوم .

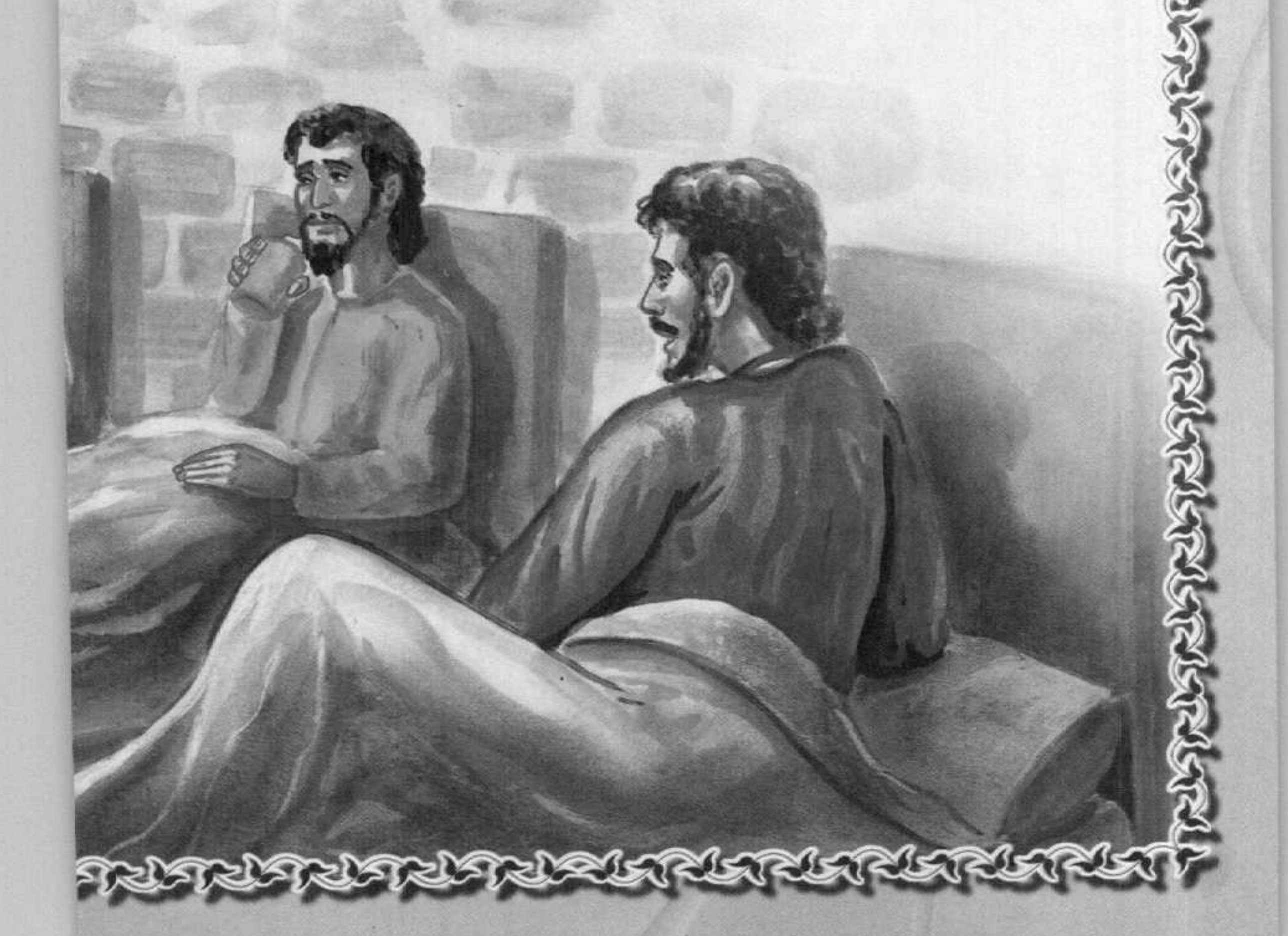


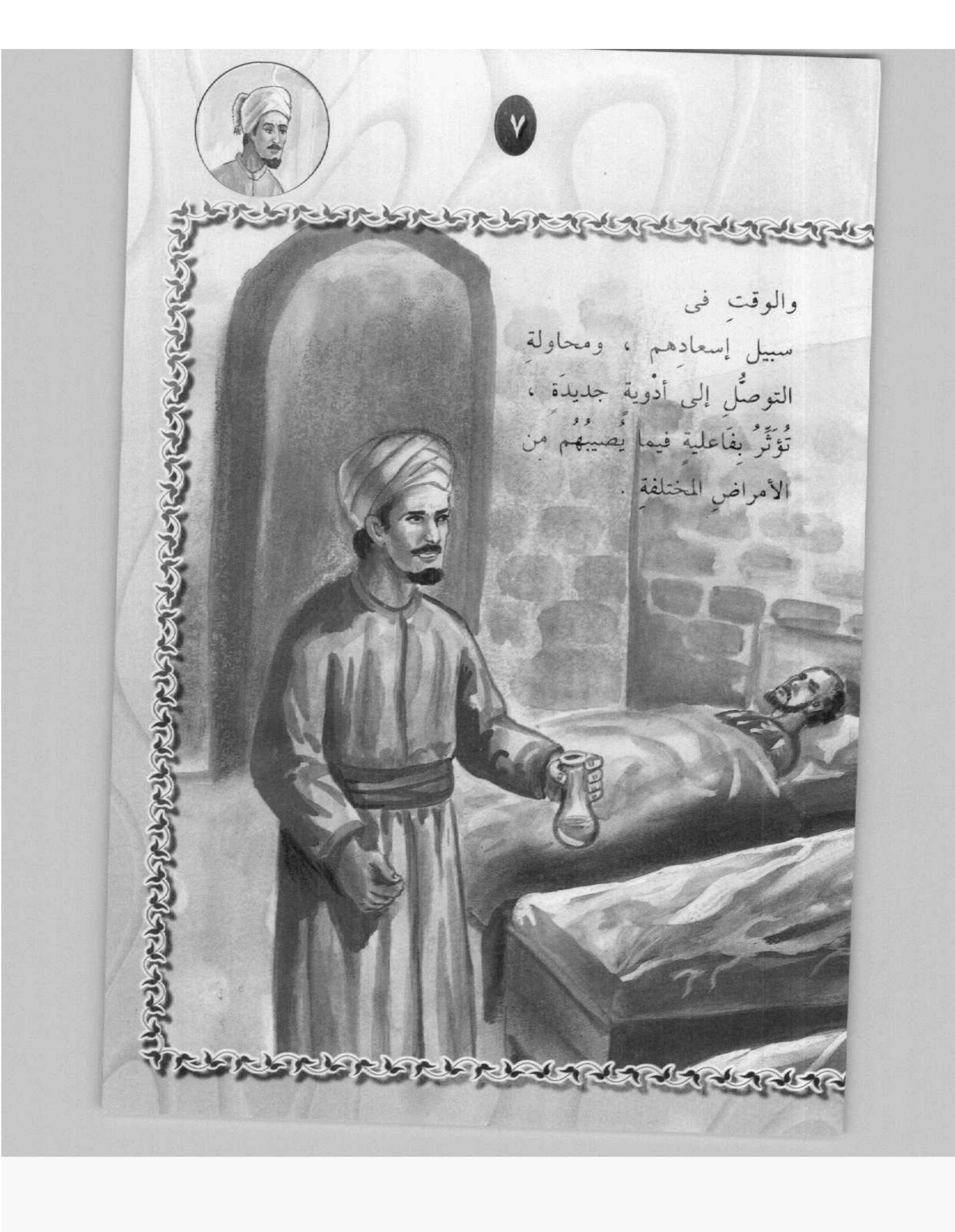
لذلك لَمْ يَمُرَّ وقتٌ طويلٌ إلا وكان واحداً من الأطباءِ المشهورينَ ، لَيْسَ فى دمْشَق وحْدها ، وإنما فى كثير من البلدانِ ، فوصلت شهرتُهُ إلى السلطان الكامل محمد الأيوبى - أخو سُلْطَان دمشق - وكان السلطانُ الكاملُ يَحْكُمُ مِصْرَ ، فبعث فى اسْتِدْعَاءِ ابْنِ النَّفِيسِ للاسْتفَادَة من علمه .





ذَهَبَ علاءُ الدين ابنُ النَّفِيسِ إلى مصر ، فاستقبله سلطانُها الكامل أَحْسَنَ استقبالٍ ، وأكرمه غايةَ الإكرامِ ، ثمَّ أَمَرَ بتعيينه رئيساً للمستشفى الناصرى ، ثم رئيساً للمستشفى المنصوريّ ، وبَقِيَ زمناً طويلاً متنقلاً بين الاثنَينِ ، يُدَاوِى المرضى، وَيَرْأَفُ بأحوالِهم ، ويُسَخِّرُ عِلْمَهُ للتخفيفِ عن النَّاسِ ، وإنْفَاقِ الْجُهْدِ




والوقتَ فى
سبيل إسعادِهم ، ومحاولةِ
التوصُّلِ إلى أدوية جديدَة ،
تُؤَثِّرُ بفَاعليةٍ فيما يُصيبُهُم من
الأمراضِ المختلفةِ .



كان ابْنُ النَّفيسِ يمشى مسرعاً فى أحدِ شوارعِ القاهرةِ ، حين اسْتَوْقفه أحدُ أصدقائه مُتَسائلاً :

إلى أين أيُّها الحكيم علاء الدين ابن النفيسِ ؟

فأجابه ابْنُ النفيس : إلى الدار .

قال له صديقه : أنا لا اسْتَوْقِفُك حينَ أراك تُسْرِعُ الْخُطَى مُتَّجهاً إلى المستشفى ، وأقول فى نفسى : لا بدَّ أنك تَتَعَجَّلُ حتى تُدْرِكَ أحدَ المرضَى هناك ، لكنك الآن تُسْرِعُ الْخُطَى إلى الدَّارِ كما أخْبَرْتَنى ، ففيمَ العجلةُ إذن ؟

سَأَلَهُ ابْنُ النَّفِيسِ :

وَمَاذَا تَبْغِى مِنّى أَنْ أَفْعَلَ ؟

أجابَ صَدِيقَهُ :

تَسِيرُ على مَهَلٍ يا صديقى ، أُرِيدُ أَنْ أَرَاكَ تَسِيرُ مُتَمَهِّلاً مَرَّةً واحدةً .

ضَحِكَ ابنُ النَّفِيسِ وقال :



يا صديقى . . . إنَّ الوَقْتَ شَىْءٌ ثَمِينٌ ، لا يَجبُ علينا أنْ نُضَيِّعَهُ بلا فائدة ، بَلْ علينا أنْ نَسْتَفِيدَ منه إلَى أَقْصَى دَرَجَة مُمْكنَة ، علينا أَنْ نُفِيدَ النّاسَ وأَنْ نعَاوِنَهُمْ. . . وعلينا أَنْ نَعْمَلَ، فإذا فَرَغْنَا من كلِّ هذا ، كان علينا أَنْ نَقْرَأَ ، فَإِنَّ الْقِراءةَ تُوَسِّعُ الإِدْرَاكَ .





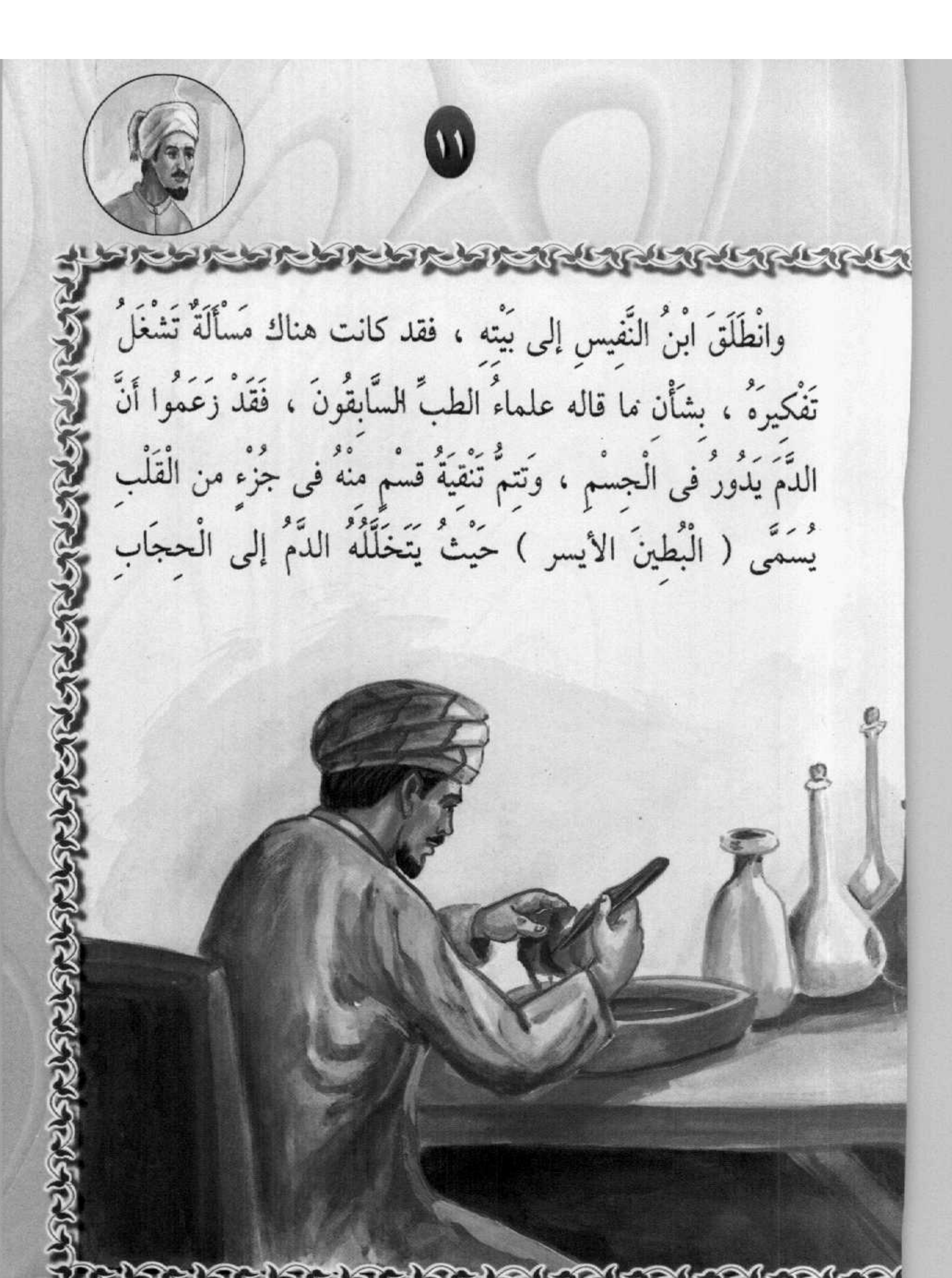
ضَحِكَ صديقُهُ وقال له :

أَيَحْتَاجُ إلى القراءَةِ عَالِمٌ كبيرٌ مِثْلُكَ ؟

فقال ابْنُ النَّفِيس :

الإنسانُ يَحْتَاجُ إلى القراءة دائماً ، ويَحتَاجُ إلى استِيعَابِ مَا يَقْرَأُ ، ويحتاجُ أيضاً إلى أَنْ يَتَأَمَّلَ الحياةَ مِنْ حَوْلِه ، وأَنْ يُفَكِّرَ فى الوسائِلِ التى يُحَسِّنُ بها أحوَالَه ، ويحتاجُ إلى أَنْ يَتَعَبَّدَ ، وكلُّ ذلكَ يحتاجُ إلى وقتٍ طويلٍ ، لذلك أَنْصِحُكَ يا صديقى بِأَنْ تُحَافِظَ على وَقْتكَ كما أَفْعَلُ ، فَلَوْلا مُحَافَظَتِى على وَقْتِىَ ، لَمَا تمكَّنتُ من تحصِيلِ الْقَدْرِ الذى حَصَّلْتُهُ من العلوم ... بإِذْنِكَ .

وانْطَلَقَ ابْنُ النَّفِيسِ إلى بَيْتِه ، فقد كانت هناك مَسْأَلَةٌ تَشْغَلُ
تَفْكيرَهُ ، بشَأْنِ ما قاله علماءُ الطبِّ السَّابِقُونَ ، فَقَدْ زَعَمُوا أَنَّ
الدَّمَ يَدُورُ فى الْجِسْمِ ، وَتَتمُّ تَنْقِيَةُ قسْمٍ مِنْهُ فى جُزْءٍ من الْقَلْبِ
يُسَمَّى (الْبُطِينَ الأيسر) حَيْثُ يَتَخَلَّلُهُ الدَّمُ إلى الْحِجَابِ



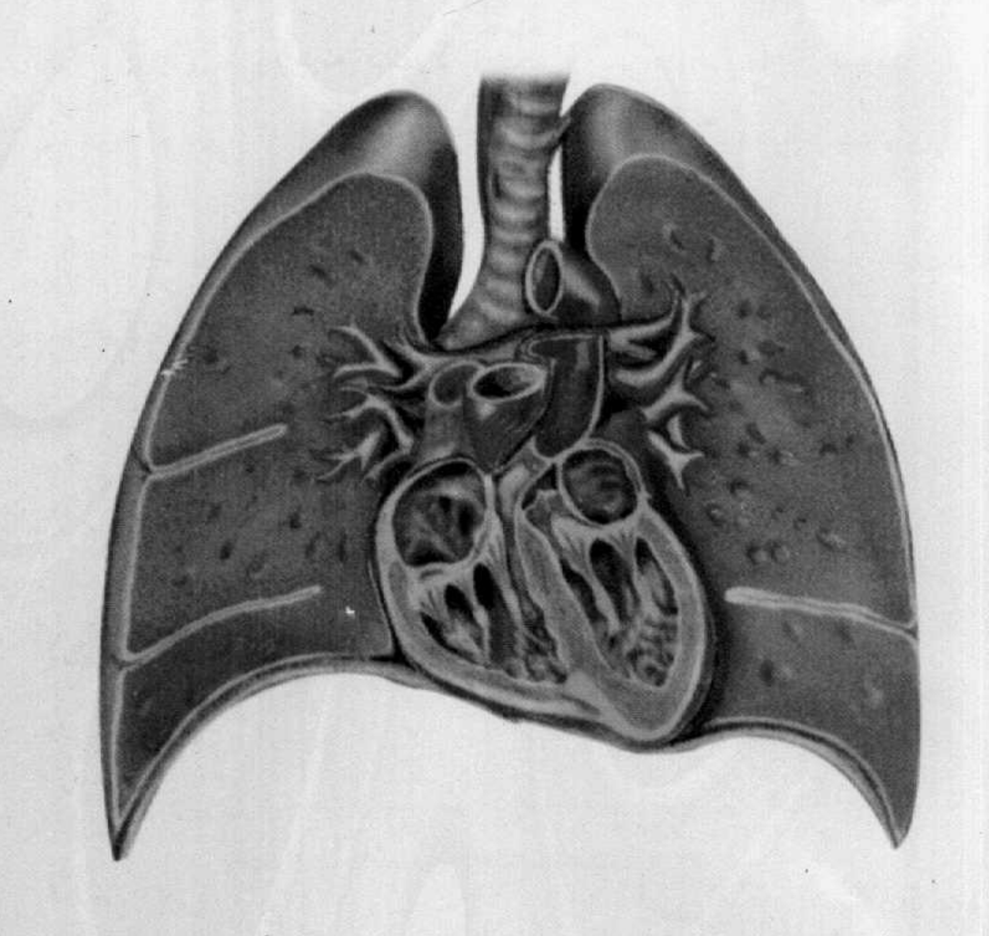


الْحَاجِزِ الموجودِ تحتَ الرِّئَتَيْنِ ، لكنَّ ابْنَ النَّفيسِ كان يَتَشَكَّكُ فى صِحَّةِ هذا الأَمْرِ ، بالرَّغْمِ من أنَّ جَمِيعَ الأطباءِ قَبْلَهُ كانوا مُقْتَنِعِينَ بِصَحَّتِه .

كان ابْنُ النَّفِيسِ يَهْتَمُّ بالوقتِ فلا يُضَيِّعُهُ ، ولكنَّه إذا تَصَدَّى إلى تَجْرُبَةٍ علميَّةٍ فإنَّه كان لا يَتَعَجَّلُ النتائجَ ، بَلْ كان يُجْرِى التَّجْرُبَةَ خُطْوَةً . . . خُطْوَةً ، ولا يَنْتَقِلُ مِنْ خُطْوةٍ إلى أُخْرَى إلا إذا تَأَكَّدَ من سلامةِ الْخُطْوةِ الأُولَى ، ويَتَأَكَّدُ من سلامةِ نَتَائجِها ، فَقد آمَنَ أَنَّ الدِّقَّةَ العلميَّةَ هِىَ السبيلُ الوحيدُ لِنتائجَ حَقِيقِيَّةٍ صادقة ، لذلك مكثَ شُهوراً طوِيلةً يُشَرِّحُ القلبَ وَالرِّئَتَيْنِ ، ويَتَتَبَّعُ الأَوْعِيَةَ الدمويَّةَ ، التى تَنْقَسِمُ إلى أَوْرِدَةٍ وشرايينَ ، ويَبْحَثُ فى كيفيَّةِ حَرَكةِ الدَّمِ فيها ، حتى توَصَّلَ إلى اكْتِشَافٍ مُذْهِلٍ .

وَجَدَ ابْنُ النَّفيسِ أَنَّ الدَّمَ لا يُنَقَّى فى البطينِ الأَيْسَرِ ، ولا يُنَقَّى عند الحجابِ الحاجزِ ، كما زَعَموا ، وإنَّما تَنْقُلُه العُرُوق

إلى الرِّئتينِ ، فَيَخْتَلِطُ بالهواءِ ويُنَقَّى ، ثم يعودُ - بعد تَنْقِيَته - إلى القلبِ فى دَوْرَةٍ دمويّةٍ صُغْرَى ، فالدّمُ يَدُورُ فى الجسم كلّه فى دَوْرَةٍ دَمَوِيَّةٍ كُبْرَى ، وهناك دَوْرَةٌ أُخرَى صُغْرَى يَدُورُ فيها الدَّمُ من القلب إلى الرِّئتينِ ومِن الرِّئتينِ إلى الْقَلْبِ .

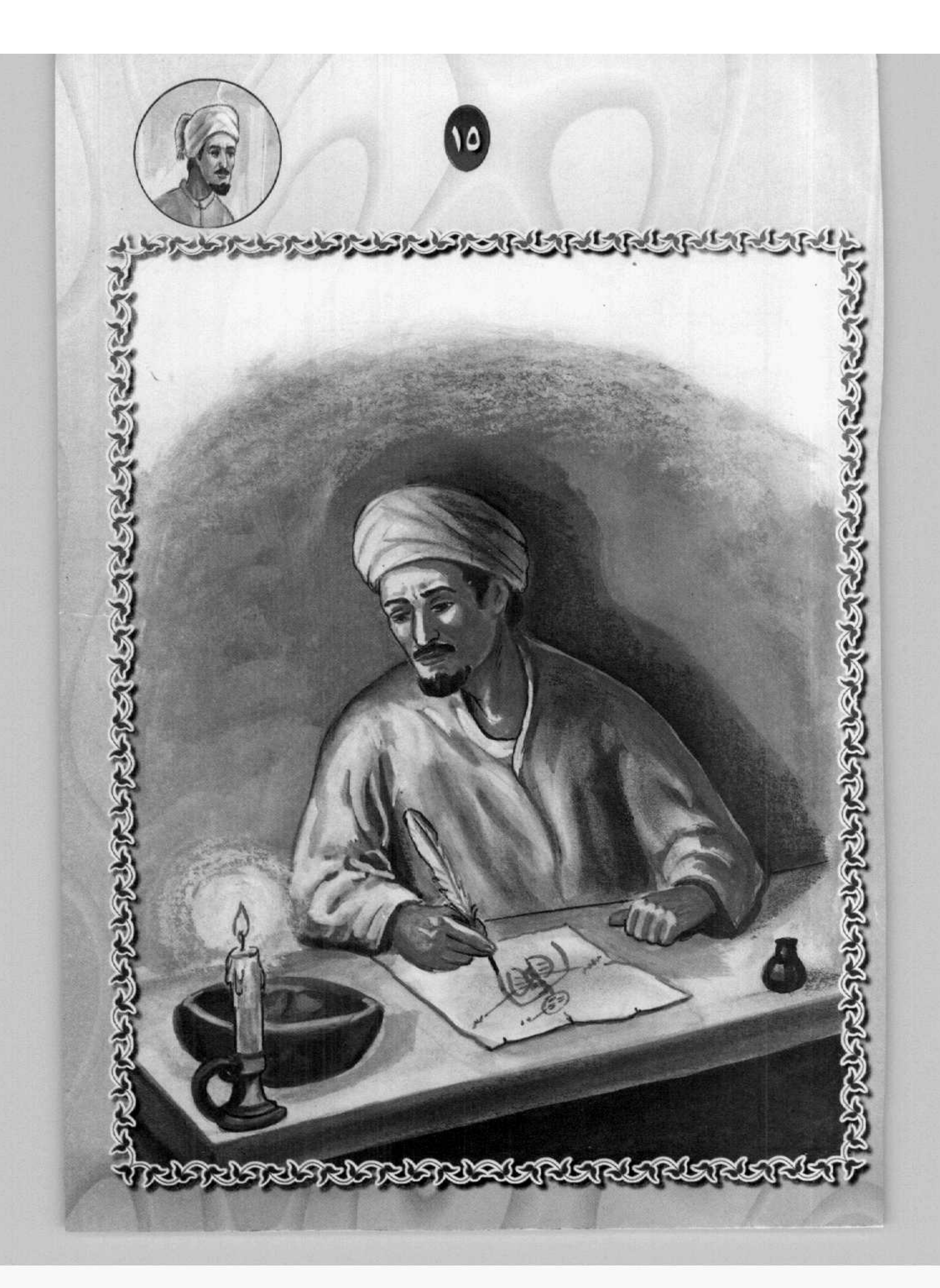




سَجَّلَ ابْنُ النَّفِيسِ اكْتِشافَه الخطيرَ هذا فى كتابه الذى أسماهُ « شَرْحُ تَشْرِيح القانونِ » أى شَرْحُ الجزءِ الخاص بالتشريح فى كتاب القانونِ فى الطبّ لابْنِ سِينَا، وقد تُرجِمَ هذا الكتابُ إلى اللغةِ (اللاتينِيَّة) ، كما تُرْجِمَ غَيْرُهُ من مؤلفاتِ ابْنِ النَّفيسِ .

وبعد مرور (٩٠٠) عامٍ ادّعَى (سرفيتوس) الأسبانى ، و(وليم هارفى) الإنجليزى اكتشافَهما للدَّوْرَةِ الدمويَّةِ الصُغْرَى، ودار جدلٌ كبيرٌ ومناقشاتٌ كثيرةٌ ، ولكِنَّ (د . جورج سارتون) - وهو أكْبَرُ مُؤَرِّخِى العلومِ فى العالمِ - حَسَمَ الأمْرَ فى كتابِهِ « المدخلُ إلى تاريخ العلمِ » فقال :

« إنَّ ابْنَ النَّفِيسِ هو أوَّلُ مَنِ اكْتَشَفَ الدَّوْرَةَ الدمويَّةَ الصُّغْرَى ، التى كانت مَجْهُولةً قَبْلَهُ ، وكان هذا الاكتشافُ منسوباً إلى العالِمِ الإنجليزى (وليم هارفى) ، ولكِنْ وُجدتْ مَخْطُوطَةٌ فى باريس شرح فيها ابن النفيس نَظَرِيَّاته عن الدورة الدمويَّة الصُغْرَى ، ومن هنا يُعَدُّ ابْنُ النَّفِيسِ الرائدُ الأوَّلُ لاكْتِشافِها » .





وهكذا عَادَ الحقُّ لأَصْحابه ، وصار اسمُ ابْنِ النَّفيسِ مكتوباً بحروفٍ من نُورٍ فى صفحاتِ التاريخِ ، فإنَّ اكتشافَهُ الْعِلْمىَّ هذا قد ساهم بدرجةٍ عظيمةٍ فى تَطَوُّرِ العلومِ الطبيَّةِ فى العالمِ.

